

4

ألواح الزمرد

6000 قبل الميلاد - 5600 قبل الميلاد



«لا بد لكل ملك جبار من صارم بتار».

كنا نظير كالحمام البيضاء ننظر حولنا بترقب، صحراء شاسعة لا حياة فيها، كثبان تتشابه، كل ما في اليمين هو ما في اليسار، حتى بدا لنا وسط كل هذا شيء باهر، شيء يستحيل وجوده بأي حال في صحراء؛ حلقة دائرية من الأرض مبنية عليها مدائن فاخرة، بداخلها حلقات أخرى عليها مبانٍ أكثر فخامة، كل حلقة عليها بنيان أفخم من الحلقة التي خارجها، وبين كل حلقة وحلقة نهر أزرق صافٍ، شيء لا تكاد تصدق أنه مبني في ذلك الزمان القديم، لأن هذا حقاً مستحيل، كانت تلك هينار، قلب أتلانتيس، وأجمل مدينة رصدتها عيون التاريخ.

نزل بنا التصوير الطائر بميلٍ لأسفل كأنه يريد أن يهبط بنا في منتصف المدينة، أطلقنا عيوننا في المدينة وتفاصيلها، أهرام وقصور وأنهار وحدائق معلقة، ثم أتينا إلى المركز حيث انتصب قصر عالٍ كأنه اللؤلؤ، انقضَّ بنا التصوير على القصر كأننا سنصطدم به، ثم بدأ يميل بنا إلى نافذة عملاقة مفتوحة في القصر، وفي غمضة عين مررنا منها ووجدنا أنفسنا بالداخل. كل شيء فاخر، سمعنا ضحكات رجال ونساء يتحدثون بلغة سريانية غريبة، تهادى بنا التصوير حتى دخلنا ووقفنا فوق شرفة تطل على ساحة عظيمة في القصر فرأينا الرجال والنساء، ملابسهم عجيبة لم نرَ مثلها، إحداهن كانت تلبس تاجاً ثميناً عبارة عن جناحي صقر فارداً جناحيه، لكن مهلاً، يوجد رجل نعرفه جيداً وسط كل هذا الجمع، عجوزاً كان لكن ملامحه لم تتغير كثيراً.

كين، المجرم الأول، كان يقهقه بهيبة وسعادة، يبدو أنني نسيت أن أخبرك، هينار هي المدينة التي بناها كين بمعجزة معمارية لا تصدق وسط صحراء أرض نود التي لم يكن فيها زرع ولا ماء. وتلك الفاتنة التي ترتدي التاج هي إيزيس، زوجته، نعم هي إيزيس التي في بالك بردائها الأحمر والمرسومة على جدران المعابد التي تعرفها.

- كين يا أخي الحبيب ألن تكفَّ عن عادتك هذه؟ أنا لم أرَ في حياتي شخصًا يحتفل بيوم مولده في كل عام.

كان صوتًا كالضحك ذا بحة عجيبة يأتي من مكان ما، نظرنا إلى صاحب الصوت فاستعرت عيوننا من غرابة شكله، طويل القامة ذو شعر أحمر ثائر طويل، بغيض الوجه مشعر الجسد والرقبة واليدين، حتى لون الشعر على جسده أحمر؛ ما أعطاه مظهرًا مقلقًا، كان ذلك «ست»، أحد إخوة كين وأبناء آدم الكبار وملك مدينة شيلون الواقعة جنوب عدن. ابتسم له كين وقال:

- أنا أول مولود في هذا العالم، إن لم أكن سأحتفل بهذا فمن؟

قال «ست» بصوته المقيت وهو يبتسم:

- فإني قد أتيتك بمفاجأة هذه السنة يا أول مولود.

نظر إليه كين متسائلًا، فصَفَّقَ «ست» بيده بقوة فجاء رجال شداد يحملون على أكتافهم شيئًا فاخرًا طويلًا لا تدري أهو صندوق أم تابوت ووضعوه على الأرض، فدهش كين لما رآه، وكان يحب الصُّنْعَ المتقن، جدران ملونة قوية من الخشب المذهب منقوش عليه رسم عين مُكحلة، فتح «ست» التابوت بيده فكان ما بداخله أروع مما بخارجة. دخل «ست» إلى التابوت القائم وهو يبتسم بفخر ثم خرج وقال لكن:

- تعال يا كين ادخل وألقِ نظرة بالداخل وأخبرني بمعنى الرسوم.

تقدم كين خطوات منبهرة ودخل إلى التابوت الذي كان حجمه مطابقًا لحجم كين بالضبط، في حين كان «ست» أقصر، أخذ كين

ينظر إلى الرسوم الداخلية بإعجاب، ولمّا قرأها وفهم معناها فتح عينيه فجأة بذعر، وفجأة ودون مقدمات انغلق التابوت على نفسه بعنف عبر ميكانيكية معقدة صنعها «ست». تحفّز كلُّ من كان في القاعة ولم تكد تسمع صوتاً حتى صفّق «ست» مرة أخرى فتحرك رجاله، كل واحد منهم أخرج خنجرًا وأمضاه في قلب من كان بجواره من رجال كين وذويه، نعم كان ذلك أول إسقاط للحكم في التاريخ، وقد كان نظيفاً وسريعاً، بضربة واحدة انتهى ملك كين على مدينة هينار الساحرة وبدأ عهد جديد من الشر، عهد «ست».

«قبور الملوك هي أكبر موعظة في هذا العالم».

تابوت مزخرف رآه أهل هينار يجري في أنهارهم يسبح يميناً وشمالاً، وإيزيس ملكتهم وأمهم تجري وراءه دون تاجها باكية، وقد انفطر قلبها وهي تنظر إلى التابوت ينتقل من حلقة نهرية إلى الحلقة التي خارجها بسرعة مع المجرى، قال أحد الرجال لـ «ست» الذي كان ينظر من شرفة القصر:

- لماذا لم نقتلها يا مالك⁽¹⁾؟

- حتى يراها أبنائها تركض مذلولة دون تاجها ويعلموا أن ملكها قد زال.

نعم كانت إيزيس ملكتهم وأمهم، فرغم أن كين المطرود لأرض نود لم تكن معه سوى زوجته إيزيس، لكنه لمّا أنجب ابناً وبناتاً زوجهما ببعضهما مخالفاً فطرة الله، وظل يزوج بنيه من بناته وفعل أبنائوه المثل مع أولادهم حتى بلغوا ثلاثة ملايين إنسان في تسعمئة سنة كلهم أبناء محارم، وسكنوا جميعاً مدينة هينار، قال الرجل لـ «ست»:

(1) مالك بالسريانية تعني ملك.

- يا مالك إنهم قد يفتحون ذلك التابوت.
- ولا بكل أداة على هذه الأرض يقدرّون على فتحه، لقد صنعتها بنفسى.

جرى التابوت وجرى حتى وصل إلى النهر الخارجى ثم إلى النقطة التي تلتقي فيها كل الأنهار الدائرية، التي تتصل بنهر طويل جدًا يمشى في أرض المتوسط ليصب في المحيط الأطلنطي.

لم تكن أي من تلك الأنهار الجارية في هينار موجودة، كين وأبناؤه حفروها ليجلبوا مياه المحيط، ووضعوا بين كل حلقة نهريّة والتي تليها فتحة بنوا فيها جدارًا شمعيًا، فلا تدخل مياه المحيط المالحة من الحلقة إلى التي تليها إلا عبر الجدار الشمعي الذي يرشح الملح من الماء فتصبح المياه في الأنهار الداخلية كلها عذبة، كان كين يملك عقلًا جبارًا، لكنه اليوم ظل يجري في ذلك النهر تحركه الرياح متجهًا إلى المحيط، وكل شعبه الذين هم أولاده يجرون خلف التابوت بفجع وقد شلّ تفكيرهم وكلهم خوف أن يصل التابوت إلى المحيط فيضيع إلى الأبد.

كاد التابوت أن يصل إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق الذي كان صحراء في ذلك الزمان يجري فيه نهر كين الصناعى، لكن الله أراد أن يرسو التابوت تمامًا عند أعمدة هرقل، المرتفعات الصخرية الشهيرة عند بوابة المحيط، هناك توقف التابوت وتجمع عنده الناس وإيزيس معهم منهارّة لا تدري ما تفعل، والحق يقال.. إنهم حاولوا بكل طريقة أن يفتحوه، بالقوة والحيلة لكن بلا نتيجة، وكانوا ينادون كين ويضعون آذانهم على التابوت فلا يسمعون له حَسًّا.

مضى اليوم ثم الذي يليه وتناقص الناس عند التابوت، ولم تبقَ سوى إيزيس الباكية التي صار جفناها سوداوان من الدمع المختلط بالكحل، لكنها لم تئس، ظلت تحاول، حتى أتاها خاطر بأن تستعين برجل ماهر

شهير يعيش في المدينة المجاورة، وقد أتاها الرجل، وفي نهاية اليوم الثالث، نجح الرجل الماهر في فتح التابوت.

«أَيَّا مَنْ كُنْتَ تَتْرَبِعُ فَوْقَ الْعُرُوشِ أَنْبِئْنَا عَنْ طَعْمِ التَّرَابِ فِي مَدْفَنِكَ».

كان كين ينظر من داخل التابوت، فقط ينظر، لا يحرك طرفاً واحداً من أطرافه، انهالت عليه إيزيس بالدمع والصراخ وهو يحدق إليها وعينه حمراء ترتجف ولا يحرك حتى رأسه، مدت يدها إليه ومد الرجال أيديهم يخرجونه، ولم تمضِ ثوانٍ حتى عرفوا الفاجعة، لقد شل جسد كين بأكمله. وحكم «ست» وطمغى وظلم، وقتل الجيل الأول من أبناء كين كباراً وصغاراً في أول مذبحة بشرية في التاريخ، ذبحهم جميعاً حتى لا ينقلبوا على الحكم ولم يترك إلا الأحفاد، وترك كين وإيزيس فقط ليستمتع برؤية الذل في وجهيهما.

حدث كل هذا في آخر قرون من حياة آدم وحواء، لكن هينار كانت معزولة عنهما وعن أولادهما بسبب تحذير آدم ذريته من الاختلاط بذلك النسل الممتلئ بزواج المحارم. ومرَّ الزمان الدامي بعد وصول «ست» إلى حكم هينار، عشرات الأيام تتلوها عشرات، وعاشت إيزيس مع زوجها المشلول المذلول يختبئان من نظرات الشفقة في عيون أبنائهما الصغار، ثم ولدت إيزيس طفلاً كانت قد حملت به بعد أن شلَّ كين، وكان هو آخر طفل من نسله المباشر، وأصبحت إيزيس تنظر إليه على أنه الأمل الذي سيسترد الحكم من الطاغية الأحمر «ست».

كان الطفل ذا مظهر غير معتاد، رمادي الشعر، يختلط في شعره البياض مع السواد الفاحم، رمادي العينين أبيض البشرة، سمَّته أمه جينون، لكن جينون هذا كانت طباعه مختلفة كاختلاف مظهره؛ صامت لا يتكلم إلا قليلاً، بارد المشاعر كأن البياض الذي في رأسه هو جليد

يجمد روحه. مئتا عام من الذل انقضت ثم قرر «ست» أخيراً أن يقتل كين وإيزيس، ونزل رجاله كالذئاب إلى البيت المتهالك الذي تعيش فيه إيزيس مع زوجها، وعند ساحة البيت الخارجية كان كين مستنداً إلى شجرة والشيب والشلل قد زادا من البؤس المطبوع في وجهه أضعافاً، نظر إليهم برعب وهم يقتربون منه ويتضاحكون، وبدأت حياته تمر أمام عينيه، تذكر هابيل، ونزل الدمع من عينيه وهو ينظر إلى الرجال وقد أخذ أحدهم حجراً كبيراً ومشى إليه، خفق قلب كين وبحثت عيناه عن زوجته أو ابنه لكنه لم يجد أحداً، فأغمض عينيه بألم، وسمع أحد الرجال يقول:

- كما قتل أخاه بحجر، اليوم يموت بحجر.

ومن بين ظلال الشجر كان جينون الشاب واقفاً ينظر إلى مشهد الرجال وهم يسخرون من أبيه ويثقلون عليه ويتظاهرون بضربه بالحجر ثم يمتنعون إمعاناً في تخويفه وإذلاله، لم يتحرك جينون، ولم يطرّف، فقط كان واقفاً كلوح ثلجي، وهوى الرجال على رأس كين بالأحجار التي في أيديهم واحداً بعد الآخر ووجه كين ينسحق وتفور منه الدماء، حتى انتهوا، وجينون ساكن كأن الطير سيهبط فوق رأسه، وبدأ الرجال يبحثون عن إيزيس، حتى وجدوها آتية لا تدري ما حصل، ولم يكن العمر قد نال من جمالها شيئاً.

قال أحد الرجال:

- الملكة ذات القوام المتفجر، تُرى كيف يبدو جسد ملكة؟

وهجموا عليها هجمة رجل واحد، أو ذئب واحد، يخلعون عنها لباسها ويستلقون عليها واحداً تلو الآخر ويرمون لها لبعضهم، ولم تنجح صرخاتها في تحريك شعرة واحدة في رأس ابنها جينون، نظرت إليه بأمل وهي تقاوم مغتصبيها فقابلها بعيون شاردة باردة، ثم استدار

وغادر المكان كله، ولم تمضِ دقائق إلا وقد تجمع الناس ينظرون إلى
مأساة من دم وعار.

«من يحجز مقعده أولاً في لعبة يفز بها».

كانوا جماعة سائرين في صحراء قاحلة في ظلمة الليل الأسود،
يتبع بعضهم بعضاً، مسافرين من أرض بكة إلى أتلانتيس، عائدین من
زيارة البيت المقدس، وهم يومها خيرة البشر على الأرض، معهم نبيهم
العجوز يارد، يسمون أنفسهم أبناء الله، ولقد وعدهم ربهم بعد سفرهم
هذا بالدخول إلى جنة أرض عدن التي لا يدخلها إلا الصديقون والأنبياء،
ولم يكن في الدنيا مَنْ هو أسعد منهم، فكنت ترى في وجوههم رضا
وبهجة رغم وعثاء وغبار السفر.

لكن فجأة توقف أبناء الله عن السير، وبدأت أصواتهم تعلو بالجدال
وهم ينظرون حولهم إلى الصحراء في بحيرة، لا شيء في مرمى
النظر إلا أكوام من الرمال يعلوها ظلام لا نهاية له، المفاجعة أنهم لم
يعودوا يعلمون أين اتجاه أتلانتيس، تحولت سعادتهم إلى خوف، فإن
هم ضلوا الطريق هنا فقد يموتوا في هذه الصحراء المترامية. بدؤوا
جميعاً ينظرون إلى شاب كان بينهم، أبيض البشرة أسود الشعر وسيم
الملامح، لم يلد التاريخ عقلاً مثل عقله، فتى ألمعي أوتي كل العلوم،
اسمه إدريس، وكان له وجه تطمئن بمجرد أن تنتظر إليه. إدريس هو
أول من تعلم علم النجوم وعرف الأبراج وقواعد سير الكواكب، نظر إلى
السماء نظرة واحدة ثم قال لهم:

- كنت أنا دليلكم في المجيء إلى هنا ولم أعلمكم، أفإن مت أنا،
تاهت أنسالكم في الصحراء؟

قال له النبي يارد العجوز:

- يا إدريس لا تكتم علمًا، فلا يكتم العلم إلا الشيطان.
- نظر إدريس إليهم وقال:
- يا أبناء الله إنا لو مشينا باتجاه الشمال سنجد نهر الفرات الذي يخرج من أرضنا أتلانتيس.
- قال له أحدهم:
- وما الشمال؟
- قال إدريس:
- انظروا أعلاكم إلى النجوم وابحثوا عن سبع نجومات متجاورات يُشبهن مغرفة الطعام.
- نظر الناس أعلاهم ودققوا حتى صاح أحدهم أنه وجدها، قال إدريس:
- أترون ذلك النجم الساطع المقابل للمغرفة؟ ذاك هو نجم الشمال، إن مشينا باتجاهه وجدنا نهر الفرات.
- علت الأصوات التي تمدح إدريس وعلمه ومشى الناس وراءه أيامًا، حتى أوقفهم شيء آخر في وسط الصحراء، شيء جعل نفوسهم ترتعد، صوت يعرفونه جيدًا أشبه بالزئير والصراخ، صوت الجيجان، أكثر كائنات ذلك الزمان توحشًا وبشاعة. صاح فيهم إدريس أن يصمتوا جميعًا ويكتموا أنينهم، وحذّرهم أن يعطي أحدهم ظهره للوحش، ثم تقدم بنفسه بلا خوف إلى الكائن ذي الأنياب القاطعة، أطال إدريس من جسده بالوقوف على أطراف قدميه ورفع رقبته ونظر في عين الوحش، كان يعرف طباع الوحوش جيدًا، لو استدرت لها أشعلت في نفسها غريزة الهجوم، ولو استطلت أمامها خافت منك، ولو نظرت في عينها أقلقته، بدأ إدريس يصدر أصواتًا صارخة بفمه ويصفق بشدة بيده ويتقدم خطوة خاطفة بسرعة بقدمه ثم يرجع، وفعلًا خاف المفترس، وأخذ يتراجع حتى ابتعد.

قال لهم إدريس أن يسرعوا الخطى، فوجود حيوان كهذا يعني وجود
نهر قريب، ومشوا تتسارع خطاهم حتى برزت أمامهم زُرقة نهر الفرات
عند مطلع الفجر، فتوقفوا عنده وحمدوا الله ربهم، لكنهم نظروا إلى
بعضهم بعضاً فجأة، هل يجب أن يتحركوا يميناً أم يساراً في النهر
ليصلوا إلى أرضهم؟ ولم ينطق أحدهم بجواب، وكالعادة نظروا إليه،
إدريس.

«صاحب العلم يعيش إلى الأبد، لكن ليس أي علم».

تحت ضوء القمر كان يجلس والنور يلمع فوق شعره الأبيض ليصنع
منظرًا عجيبيًا، جينون العجوز الصغير كما يطلق عليه بعض العامة
تهكمًا على مظهره، لم يكن يؤثر فيه شيء ولم يره أحد يبتسم أو يبكي
ولو مرة، لكن ما أجمع عليه الكل أنه صاحب أذكى عقل في هينار، فقد
رأوا منه عجبًا، لقد كان يبتكر، ولا يبتكر إلا شرًا، إن كان في هذا العالم
شخص واحد يمكن أن يُعزى إليه اختراع الأسلحة، فهو جينون، تلك
الخناجر التي قتلوا بها أباه وأمه كان هو الذي صنعها، كانت الناس
تتحاشاه ولم يكن له يومًا صديق، صموت تهبُّ في روحه رياح باردة
طيلة الوقت.

نظر جينون في تلك الليلة إلى ذلك القمر المكتمل، وفجأة ولأول مرة
منذ خُلِق جينون على هذه الأرض تتسع عيناه بذهول حقيقي ويشعر أن
كل شعرة في جسده قد وقفت ترتعد، كان يسمع صوتًا لم يكن قد سمعه
بشر يومًا، صوتًا بدا له أنه آت من كل مكان، هبَّ جينون واقفًا وعيونه
تكاد تغادر المحاجر وهو ينظر يمينًا وشمالًا بذعر. بدأ الصوت يؤثر
في روحه، يلعب في أوصاله حتى شعر بارتجاف يده وكأنه تُرك عاريًا
في عاصفة جليد، وتغلغل الصوت داخل كيانه حتى خرج منه الدمع،

وكانت هذه سابقة لو رآها أحد من أهل هينار لما صدّق نظره، جينون ذلك الصخرة البيضاء الزمهرير يبكي، ولو أن أحداً سمع ما كان يسمعه جينون في تلك اللحظة لخرّ مغشياً عليه، كان الفتى الإنسان ولأول مرة في تاريخ بني آدم، يسمع صوت الموسيقى.

مشى جينون واللحن يهزُّ روحه من جوانبها وهو يحاول معرفة مصدره، يأتي الصوت من كل مكان، كاد أن يُجن، حتى لمح فجأة ظلاً يتحرك بسرعة الريح ثم يختفي، ابتلع جينون لعبه والعزف يعلو، وفجأة هوى على الأرض كيان سقط من بين الأشجار كالكارثة، كيان رجل يراه جينون من ظهره، وضوء القمر نازل عليه فلا ترى إلا سواداً، وصوت اللحن يبدو أنه ينبعث من جسده، أدار صاحب الكيان رأسه لينظر خلفه، فرأى جينون لمحة من وجهه، ثم استدار بجسده فرآه كله. طويل الشعر يرتدي سواداً فاخراً، وجه أبيض يميل إلى الرمادي وملامح حادة بعيون تخترق الروح، كان يمسك في يده بعود عجيب ذي فجوات، إذا وضعه في فمه صدر ذلك الصوت الذي يزلزل كيان جينون، وإذا أبعدته عن فمه توقف الصوت، قال له جينون بصوت وجل:

- من.. من أنت؟

قال له الرجل بصوته ذي البحة:

- أنت تعرفني.. لكنك ما رأيتني، وما رأني أحد من قبلك من ذرية الفاني.

ابتلع جينون ريقه بصعوبة متصنعاً الثبات، لكن العزف كان قد دمر رباطة جأشه، وكان يتوق لسماع المزيد، ولم يستطع أن يُخرج كلمة ولم يدر ما يقول، فظل ينظر إلى الرجل ويحاول أن يتمالك نفسه، بدأ الرجل يقترب منه ببطء حتى قال له كلمة زادت الخوف في قلبه أضعافاً، قال له:

- إبليس.

قالها وحدها وسكت، ولم يكن يحتاج إلى أن يقول كلمة غيرها تفسرها.

«من ذا الذي لا ينحني إذا برز له الشيطان؟».

تعلّم جينون من الشيطان أمورًا لا يعرفها بنو الإنسان، تعلم منه العزف بالمزمار وبدأ يصنعه بنفسه، ولكنه لم يستخدمه قط أمام أحد، وتعلم من وحي الشيطان صنْع أشربة تذهب بالعقول وسماها خمراً، وكان الناس في السابق يعرفون السُّكر (ذهاب العقل) الذي يحصل من تناول نبات جوز الطيب، لكنه كان ذا طعم مُر يُتعب البطون وذا منظر مقزز، أما التخمير والخمر ذو المذاق الجميل فلم يعرفوه مطلقاً من قبل. علم جينون أن الشيطان لا يعطيه تلك العلوم بعضها وراء بعض هكذا بلا مقابل، فقال له جينون مرة:

- أليس الفساد يرضيك يا إبليس؟ أرض هينار اليوم تعيش أفسد أيامها وأكثرها دموية في عصر «ست»، ما حاجتك إليّ؟

جاوبه الجني القديم بعقلية شيطان:

- فساد الحاكم الظالم يُعظّم في نفوس الشعب المسكين المظلوم الرغبة في الحق، أما الذي يرضيني أن يكون الكل فاسداً.

نظر إليه جينون بشيء من التفكير فأكمل الشيطان:

- نحن نعلم ما في نفسك يا جينون، أنت صنعت الأسلحة لأن عينك تحب رؤية الناس يقتلون بعضهم وتحب رؤية تناثر الدماء، لذا يجب أن تكون أنت ولا أحد غيرك على رأس أتلانتيس كلها، وإن وعدي لك لا أخذه، لك عندي علوم ستوصلك إلى الطيران في السماء.

فكر جينون لحظات ثم قال فجأة بحزم:

- غداً أكون أنا على عرش «ست».



نظر إليه الشيطان بدهشة، ذلك الصبي الذي بلغ الحلم حديثاً، يتحدث بكل تلك الثقة، هل أخطأ لما اختاره في هذا العمر الصغير؟ انصرف جينون بصمته المقبض، وفي اليوم التالي فعل شيئاً عجيباً؛ أشاع جينون بين الناس خبر وجود ابن مباشر من سلالة كين، ابن أخير، وأن هذا الابن هو نفسه صانع الأسلحة في المدينة، بعض الناس كانوا يعلمون ويخفون، أما الآن فقد جرى الخبر على الألسنة وانتشر كالطاعون، خصوصاً بعد قتل كين وإيزيس، وخلال ساعات وصل الخبر إلى «ست» وجنوده، وكما هو متوقع، نزلوا كالضباع يبحثون عن جينون ليقطعوا رأسه الأبيض، ولم يجدوه في أي مكان، فعادوا إلى مكانهم لما انتهى النهار وقد بلغ التعب منهم ما بلغ ليجدوا الساقى الجديد للقصر قد جهّز لهم شرابهم وطعامهم.

وقبل غروب الشمس بقليل وعند القصر الملكي، سمع «ست» صوتاً كأنه يأتي من الجنة فخرج إلى ساحة القصر وخرجت حاشيته ينظرون، فلم يجدوا إلا فتى يرتدي عباءة سوداء تغطي رأسه وجسده، كان يقترب منهم وينبعث منه الصوت الفاتن، وقف «ست» يستمع وصوت المزمارة يداعب طبيعته المتوحشة، والرجال حوله أصابهم ذهول وطرب، نفذ «ست» رأسه وقال بقسوة:

- من أنت أيها الغريب؟ وما هذا الصوت؟

نظر إليه جينون من خلف العباءة وقال:

- إنها هدية لأجل سيدي.

أخذ «ست» المزمارة ينظر إليه وإلى فجواته، فقال جينون:

- ضعه بين شفتيك واسحب الهواء الذي فيه يخرج لك سحره.

أخذ «ست» المزمارة وقد امتلك كل تفكيره وحاول سحب الهواء فلم يحدث شيء، تبسم جينون ابتسامة أخفتها العباءة وقال:

- اسحب بقوة بكل ما أوتيت.

سحب «ست» بكل قوته، وفجأة فغر فاه وابتضت عيناه وترنح، لم يكن المزممار بريئاً، كان جينون قد وضع فيه نصلاً دقيقاً مسموماً انطلق فور السحب ليطعن «ست» في حلقه. تراجع «ست» بألم ونادى حاشيته ورجاله بما تبقى في داخله من صوت، فجأؤوا من كل صوب ولكنهم كانوا مخمورين يترنحون، فقد دس لهم جينون المادة المسكرة في أشربتهم لما غابوا ليبحثوا عنه، فصرخ فيهم «ست» بعنف، وبدأ الشعب يتجمعون عند القصر ينظرون إلى ما كان. كان جينون يعزف كأجود ما يكون العزف، ولم يكن الناس يدرون أين ينظرون، حاكم ظالم يموت أمام عيونهم أم حاشية مترنحون يتحكم بهم صبي صغير في عباءة، أم هذا الصوت الجميل الذي يخرج من المزممار؟ كان مشهداً عجبياً حتى خلع الصبي جينون عباءته فرآه الناس وعرفوه مباشرة من شعره الأبيض وهو يقول:

- اليوم يعود عرش كين إلى نسل كين.

صرخ «ست» صرخة أخيرة وأخرج خنجرًا ماضيًا وهجم بما تبقى في نفسه من وعي على جينون الذي حاول التراجع وتفادي ضربة الخنجر لكنه لم يقدر، أصاب الخنجر عين جينون اليسرى، ثم سقط «ست» ميتاً، ومن تلك اللحظة انتهى عصر الطاغوت الأحمر وبدأ عصر جينون، الأعور.

«معركة العقول بدأت في أتلانتيس».

عند نهر الفرات كانوا ينظرون إلى أرض مخضرة، لكنها ليست كأرضهم، وأي شيء مثل أرضهم؟! قال لهم العليم إدريس:

- أرضنا في الغرب يا رجال.

وقبل أن يتكلم أحدهم ويسأل أين الغرب تحرك إدريس وأحضر عصاً رفيعة غرزها في الرمل تحت الشمس فصنعت خطاً من الظل، وضع إدريس حجراً على هذا الظل، ثم قال لهم:

- انتظروا بعض الوقت ثم تعالوا إلى العصا، ستجدون ظلها قد تحرك، ضعوا حجراً ثانياً عند موضع الظل الجديد، الحجر الأول سيكون الغرب، والحجر الثاني هو الشرق.

كان إدريس قد تعلم ذلك بالفطنة وقراءة كتاب آدم الأول، كان يؤمن أن العلم يجعلك إنساناً، وسيداً في الأرض، راقبهم إدريس وهم يضعون الحجر الثاني ويأتونه فرحين، وإن من يتعلم يسعد. توجه الركب من أبناء الله ناحية الغرب حتى دخلوا أرضهم أتلانتيس، وعرفوها من جبالها الخضراء وسهولها ودوابها الملونة الأليفة، ثم دخلوا مدينتهم عدن، أكبر مدينة في أتلانتيس أنشئت على تلك الأرض التي تجري فيها ثلاثة أنهار متوازية خارجة من الجنة كل واحد أصفى من الذي قبله، خرج أهل المدينة يستقبلون نبيهم وحاكمهم يارد العجوز الذي حكم بعد وفاة آدم مباشرة، وكان عائداً من رحلته الأولى من أرض بكة.

ولم يرتح الركب ساعة واحدة في المدينة، إذ تحركوا إلى جبل ماتاريمون يعتكفون فوقه حتى يأتهم إذن ربهم بدخول جنة عدن، وكان عددهم ثلاثمئة أو يزيدون، وجبل ماتاريمون الكبير هو الفاصل بين مدينة عدن وأرض نود، ولما أصبحوا على قمته نظروا إلى أرض نود، وبانت أمام وجوههم مدينة هينار العجيبة، أرض أصحاب الدم الملوث بزواج المحارم، ولم يكونوا يعلمون أن هينار لم تعد لـ «كين» ولا لـ «ست»، بل طويت تلك الصفحة وفُتحت صفحة أكثر سواداً، صفحة جينون. مشى بينهم العجوز يارد وهو يقول لهم بصوت واهن:

- يا بني، إنني قد عاهدت أبانا آدم عهداً، وإني اليوم أعاهدكم أمام الله ألا تختلطوا بأبناء كين فقد فسدوا وفسدت أنسابهم.

كانت مدينة هينار قريبة يُرى أهلها من بعيد جدًا يأتون ويروحون،
نظر أبناء الله من فوق الجبل إلى المدينة وقد تعاهدوا ألا يأتوا هذه
المدينة أبدًا، ونظروا بعيدًا إلى الجنة الظاهرة بأشجارها وطيورها
وشلالاتها فوق الجبل. ولمّا غربت الشمس تسلسل إلى آذانهم صوت يلعب
بنياط القلوب، صوت حلو تهفو إليه الروح، فتجمعوا على حافة الجبل
ينظرون إلى الأسفل، واتسعت قلوبهم قبل أن تتسع عيونهم، فهناك
بالأسفل كان أبناء وبنات كين يقيمون لهوًا فاحشًا، وفتى في منتصفهم
اسمه جينون يعزف بصوت يشعل النفوس ويتابعه آخرون يعزفون
بآلاتهم ومعاذفهم، وفتيات غانيات حولهم يرقصن على قلوب الجميع.

لم يكن أحد ممن كان على الجبل إلا فتح فمه بذهول وشعر أن روحه
تتسلل من داخله، كان إدريس خلفهم ينظر إلى المشهد بالأسفل ويسمع
صوت الألحان وكل ذرة في كيانه تنبض بالقلق وهو ينظر إلى هيئة أبناء
الله وهم يستمعون، ثم نظر إلى الأسفل للفتى الذي يقود ذلك المشهد،
ورفع جينون رأسه ونظر إلى إدريس، وابتسم ابتسامة شيطان، وبدأت
المواجهة.

«نار الشهوة تحرق خلايا العقل».

ما زال أصحاب العَوَر منذ قديم الزمان يقفون ويحركون أيديهم
فيلعبون بعقول ونفوس الغافلين، وها هو أعور هينار تحت الجبل يعزف
نوعًا من الموسيقى يشعل قلوب النساء والرجال حوله ويشتعّل الشيطان
معهم، يتميلون في خدر وعيونهم مفتوحة شرهة تنظر إلى كل مكان،
رجالًا ونساءً علّمهم الزنا والخمر واللّهو، فانتشرت بينهم الفاحشة التي
تزيد مع الخمر، فأصبح الواحد منهم يقع على أمه وابنته، لم يعودوا

يعرفون معنى كلمة إثم، ولم يعد الواحد منهم يعرف أطفاله من أطفال الآخرين.

جمعهم جينون عند سفح ذلك الجبل متعمداً، وكلمة الشيطان ترن في عقله، «إن أردت مُلك أتلانتيس فيجب أن تملك أبناء الله»، كان قد جمع حوله في تلك الليلة أفسد من فسد من مجتمعه، لو نظرت إلى ما ترتدي النساء حوله ستجد ألبسة عارية ملونة، وما كانت البشرية قبل ذلك تعرف إلا لبس الجلود، لكن الشيطان علّم جينون فن الصباغة فوضع الألوان على وجوه النساء وألبستهن وعيونهن، وعلّمه الوشم، فكنت ترى الوشم على أفخاذهن، وجعلهم جينون يمارسون الفحش في أثناء لهوهم تحت أنغام زممار الشيطان. وفي أعلى الجبل كان أبناء الله قد تركوا صلاتهم واعتكافهم وأصبحوا يتجمعون عند حافة الجبل في كل ليلة حتى مطلع الفجر، ثم ينصرفون إلى صوامعهم تملؤهم الشهوة مما رأوا، شعر إدريس بقلة الحيلة، فانطلق إلى النبي يارد وقال له:

- يا أبي، يجب أن نغادر هذا الجبل، إن أبناء الله لا يقدرّون على الصلاة.

قال له يارد:

- يا بُني إنما هذا أمر الله، ولعله يبتليهم ليصبروا.

خرج فيهم إدريس الشاب يقول:

- يا أبناء الله هلاً نظرتم إلى جنة الله، لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم آدم وحواء، فأخرجهما من الجنة.

نظروا إليه بغير اكتراث وقد أعمتهم الشهوات، نظروا أسفل الجبل فوجدوا جينون وعرائسه يتمايلون بهيام وفحش، وصوت اللحن يضرب في القلوب، كان إدريس ينظر إلى جينون ويكاد عقله ينفجر، هذا هو الفتى نفسه الأعور الذي رآه في رحلته مع حواء، لكن من هو بالضبط؟ ولماذا ينظر إليه هكذا؟ اشتعل عقل إدريس الألمعي بالتفكير: كيف

يمكن أن يحمي أبناء الله من هذه الكارثة؟ لكنه لم يجد حتى وقتاً للتفكير. فجأة رفعت بنات كين أياديهن يلوحن لأبناء الله ويبتسمن، ورفع جينون يده كذلك وهو يصنع بيده إشارة تقول لهم تعالوا، وهنا انفجر كل شيء، تجراً فريق من أبناء الله وقالوا:

- إنا نازلون إلى بنات كين ولتبقوا أنتم مع جنتكم ونجومكم وعلومكم.

مشى يارد العجوز يتكئ على عصا قديمة ويقول:

- يا أبنائي، عهد آدم وعهد الله، الله وعدكم الجنة، الشيطان يعدكم النار.

تضحكوا من هيئته واستداروا جميعاً وابتدؤوا ينزلون أفواجا وإدريس ينظر إليهم بحزن، لم يجد عقله أي فكرة، نظر إدريس إليهم نظرة أخيرة ثم خفض رأسه إلى الأرض واستدار، لقد فتنهم الشيطان وقضى الأمر، أما هو فلم يخسر فقط جولة، بل خسر كل شيء، فلا أحد بقي معه على الجبل إلا أبوه يارد الذي نزل على الأرض يبكي، وكم هي الدموع تقتل لما تخرج من عين عجوز نبي، تقدم إليه إدريس بعطف ثم انتفض متراجعا، كان يارد العجوز قد مات وسط دموعه.

«في التاريخ كل مَنْ سَمَّوا أنفسهم أبناء الله فسدوا».

فرغ إدريس من دفن يارد ووقف على الجبل ينظر إلى السماء، لم يعد أحد غيره، لقد رحل الجميع، شعر بألم يعتصر قلبه ثم سمع صوتاً فقرر أن...

- إدريس.

التفت إدريس فزعاً ليرى المنادي، كان رجلاً بهي المظهر أسود الشعر أزرق العينين ينظر إليه بهدوء، قال إدريس:

- من أنت؟

- سمعت عن علمك وأردت أن أصبحك.

استبشر إدريس وشعر أنه سيكون له رفيق في ليالي الجبل التي لا يدري متى تنتهي ويأتي أمر الله ويأذن له في دخول الجنة، وبقي الرجلان في حضان الجبل يصليان لله، ومرت ساعات وساعات، وبدأ إدريس يشعر بالتعب، لكنه عندما ينظر إلى الرجل بجواره يجده نشيطاً لم يُصِبه فتور ولا سأم، وصلى إدريس في تلك الليلة ضعف ما كان يصلي، ولمّا شعر بالتعب استأذن بالانصراف بعض الوقت، ثم عاد بعد حين وقد جاء للرجل بشيء يأكلانه، نظر الرجل إلى الطعام وقال:

- لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه.

وأصر عليه إدريس، فأصر الرجل ألا يأكل، فأكل إدريس من رزق الله وحضّر للرجل موضعاً لينام فيه ثم انصرف إلى فراشه.

في منامه رأى إدريس رؤيا عجباً: «رأى رجلاً صالحاً في سجن، دخل عليه رجلان يرتديان ثياب الجنديّة فأخرجا سيوفهما وانقضّا عليه بلا رحمة، وتطايرت دماء الرجل الصالح، وفصلوا رأسه عن جسده، وفي مشهد آخر رأى إنساناً أعور يشبه جينون يحمل طبقاً من فضة عليه رأس مقطوع يمشي بالطبق ليقدمه للملك، وكان الرأس رأس نبي».

فُجِع إدريس مما رأى واستيقظ في نصف الليل ونظر إلى الرجل رفيقه فوجده قائماً يصلي كأنه لا يشعر بشيء من متاعب البشر، فعاد إدريس إلى نومه، ومر يوم ويومان، وفي كل مرة يزيد إدريس ساعات صلاته ولا يفتر الرجل ولا يتعب ولا يأكل، وفجأة قال له إدريس:

- يا رجل، إنك معي منذ ثلاثة أيام لا تطعم ولا تفتر، أخبرني من أنت أو يكون فراق بيني وبينك.

نظر الرجل إلى الأرض قليلاً ثم رفع رأسه وقال:

- والذي جعلك بشراً.. إن ذكرك في السماء عظيم، وإنني أحببت أن أصبحك لله.

- أخبرني من أنت؟

قال الرجل البهي:

- أنا رازئيل، ملاك من عند ربك، وإنه قد وجدك صديقًا في الأرض
وصديقًا في السماء فاصطفاك نبيًا.

أصاب إدريس دهشة الفرح والفجأة، ونزلت دموعه على خديه وهو
يقول:

- طبت والله وطاب ما جئت به، أنت رازئيل صاحب كتاب آدم
المقدس؟

أوماً رازئيل برأسه إيجابًا وقال:

- يا إدريس إن ربك مُنزلٌ عليك ألواحًا من زمردٍ، فيها من العلم
والوحي ما لم يؤته إنسانًا.

خشع قلب إدريس لربه وبكى بكاءً شديدًا، فتحولت ملامح رازئيل
إلى الصرامة وهو يقول:

- لستَ مثل من سبقك من النبيين يا إدريس، إن ربك سيبعثك هناك.
وأشار الملاك بإصبعه، نظر إدريس إلى حيثما يشير الملاك، وارتجف
قلبه لما رأى المكان، كان الملاك يشير إلى هينار، أرض الإباحية.

«عقل يقوده شيطان أهون من شيطان يقوده عقل».

أنهار دائرية مزخرفة الأسوار ينام على ضفافها رجال ونساء عراة،
يسبحون تارة ويستلقون تارة، تماثيل وأصنام في كل مكان لكنها لم
تكن تُعبد، ولم تكن البشرية تعرف التماثيل قبل هذا، وإدريس رسول
الله يمشي وسط ذلك حزين القلب وعقله يعمل بجهد ألف عقل، كيف
يبدأ ومن أين. توجه إلى السوق لينظر في أمر الناس فتوقف يتابع

مشهدًا عجبًا؛ امرأة فاتنة ترتدي زياً بنفسجياً تمشي في الناس وتقول بصوت عالٍ:

- يا أهل هينار، إلى ربكم توبوا، فوالله إنَّ غَضِبَ عليكم ربكم سيخسف بكم هذه الأرض ولن يعود لكم مُلك ولا أنهار.

ضحك بعض الشبان عليها وبدؤوا يغازلونها وهي تصدهم بقسوة، وانصرفوا فنظرت إلى الأرض وبدت في وجهها ملامح من يكتُم البكاء، توجه إليها إدريس وجبر خاطرهما بأنَّ ربها راضٍ عنها، وأعلمها أنه رسول الله، فكانت تنظر إليه كمسكين وجد في الصحراء ماءً، ونزلت دموعها ساخنة، قالت له إن اسمها هو «زيلدا»، سألها عن قصر جينون ففجعت لحظة ثم قالت:

- لا تذهب إليه يا نبي الله؛ فإن ذاك شيطان مجنون، القتل عنده كالتحية.

أصرَّ إدريس على المواجهة المباشرة، ولم يسمع لقولها، فسألته:

- أنت إدريس من مدينة عدن؟ أنت الماهر العليم؟

أجابها بأن نعم، فتحولت ملامحها إلى الجد ومالت عليه وقالت:

- فإن عندي في نفسي لك سر قد يعينك، وإنني والله ما أخبرت به أحدًا قبلك.

ولمَّا أخبرته السر بهت وجهه لحظات، ثم استغفر ربه، وتوجه مباشرة إلى عرين الأعور. ورغم أن العرش كان أكبر من جينون الذي كان لا يزال فتى، فإن مظهره وهو جالس عليه وكل من حوله يرتجفون، إذا طرف طرفه واحدة كانت لا توحى بخير، فلمَّا دخل عليه إدريس البهي النبي، ذو القوام الطويل والوجه الأبيض كأنه البدر، ضيَّق جينون عينه الرمادية العوراء بدهشة أخفاها في ثوانٍ وتحوَّل وجهه إلى ابتسامة كالحية وهو يقول:

- ألم أقل لك إن لنا موعدًا يا إدريس؟

قال له إدريس:

- فإني رسول الله إليك يا جينون، وإن ربي قد سخط على ما أنتم فيه، خمر وزنا، ولقد حرمها عليكم.

- وأنا رسول الله أيضًا، ولقد علّمتُ هذا الشعب من كنوز العلوم ما لم يعرفه إنسان، ما حجتك في أنك رسول مثلي؟

- أنت رسول شيطان اسمه إبليس، وإن الأنبياء يرون الجن، وإنه جالس بجوارك هاهنا وأنت لا تراه، وإن أردتُ أن أظهره مربوطًا في يدي هذه لَتراه حاشيتك ويعلموا ما أنت عليه فسأفعل.

قطَّب جينون حاجبيه كالصقر واشتعل عقله بالتفكير، والحاشية الذين يظنون أنه عليم من عند الله ينظرون إليه بدهشة، ثم قال جينون:

- إن أظهرتَ لي الشيطان فأنت عابد شيطان، أفكل من يأتيها ويظهر لنا الشياطين قلنا عنه نبيًّا؟

بدت نظرات الاطمئنان في عيون الحاضرين، فقال إدريس:

- فإني سأقيم في مدينتك، وسأحدث شعبك، وأخاطب فطرتهم التي أفسدتها، فإن منعنتي كان ذلك يعني أنك جبان تخاف من الحق.

- أقم ما شئت، فلن تقدر على تغيير إنسان واحد منا، فالرجل في هينار يتعلم ما لم تُعلموه في بلادكم.

وانصرف إدريس من عند جينون، الذي شرد قليلًا فأتاه صوت من جواره يقول له:

- فلتأمر بقتله، قد ينقلب عليك كل شيء.

نظر جينون إلى يساره فرأى لوسيفر في رداءه الفاخر وهدوئه المقلق، فقال جينون:

- بل سأدعه، عقلي في مواجهة عقله.

وتبسم إبليس وسكت.

«إذا صعد الطبيب إلى قلوب الناس لم يقدر أن ينزله شيء».

إن أردت كسب آذان شعب، فلتنل ثقتهم، لذلك أول من بدأ بهم إدريس كانوا أبناء الله، ففيهم بذرة الخير لا تزال نابضة لكن الشيطان أغواهم، وإن كثيراً منهم لما رأى إدريس بكى وقال إن نفسه كانت تحدثه بالتوبة، لكن جزءاً آخر يقول له ألا يحاول العودة، فمن ترك الجنة ونزل إلى فروج النساء لا يغفر له الله أبداً، حدثهم إدريس عن رحمة ربهم وأنه فرح بتوبتهم، ثم توجه إلى أتباع زيلدا، الصالحة التي كانت تحدث النساء وحدها قبل مجيء إدريس، فأصلحت قليلاً منهن، ثم تحول إدريس إلى شعب هينار.

في البداية كان يجول على البيوت كطبيب، ولقد رأى فيهم أوباء لم تظهر في غيرهم، من زواج المحارم ومن فحشهم وزناهم، ولم يكن إدريس يقف عنده مرض ولا وجع، كان قد أوتي علوم الطب قبل النبوة، فارتاح الناس له وأحبوه، وكان إذا شفى أحدهم حذرّه زواج المحارم، لأنه ينتج ذرية مشوهة ممسوخة، ويحذرهم الزنا، لأنه أفشى في الناس تلك الأوجاع والأمراض، وشاع ذلك بين الناس وذاع صيت إدريس الطبيب الحكيم. قال الشيطان لجينون:

- إن إدريس يصعد كالنجم.

قال جينون:

- أعدك أن يطالبوني جميعاً بقطع رأسه.

ولعب جينون لعبة قدرة، بدأ جنده يمرون على الناس في البيوت ويعطونهم أسلحة بحجة الدفاع عن أنفسهم إذا حدث حادث، ولم يكن الناس معتادين السلاح، وفجأة صحا أهل هينار على فاجعة.

«سيميون»، شاب من أهم عائلة في هينار، اختفى عن وجه الأرض، ولم يجدوا له إلا قميصًا ملطخًا بالدم في مساكن عائلة «شين»، العائلة الثانية من حيث الحجم في هينار، وكان هذا ليس له إلا معنى واحد، أنه توجد مذبة قادمة إن لم يتدخل أحد، فالعائلتان كانتا على عداء قديم. ولم يجد أحد الوقت للتدخل، فشعور حمل الأسلحة جديد على نفوس الناس ولقد اجتمع مع الشعور بالغضب والثأر فأخرج كارثة، طغت العائلتان على بعضهما، وشوهدت الدماء تجري في أنهار هينار حتى تلونت، وكان بعض الناس يصيحون بالعظات لكن لا فائدة، فإذا وصلت رائحة الدم إلى الأنوف، فلا مُسكِّن لها إلا مزيدًا من الدماء.

وقف الشيطان بجوار جينون في تلك الشرفة والقمر ينير على رأسيهما، والشيطان يقول:

- متى تنوي؟

قال جينون:

- سأنتظر خطوته التالية.

«رائحة الدماء تُسَكِّر أنوف الشياطين».

ساحت الدماء في هينار فلونت كل شيء حتى عيون الناس، البعض كمنوا في البيوت من الرعب، والبقية انتشروا في الطرقات كالذئاب، وكانت الطرقات تزدهم أكثر كلما توجهت إلى برج هينار الكبير، هنالك تجمهر أكثر من ثلثي الشعب بضجة أسمعت أهل السماوات، أسلحة في الأيدي ودماء تلطخ الملابس وشرر في الأعين، ووسط هذا بدأ التجمهر ينفتح من أحد الجهات والكل ينظر إلى نقطة واحدة، إدريس.

ماشياً ببهاء الأنبياء وقد ملك قلوب الشعب وعقولهم، كان قد مكث بينهم كثيراً يبني ثقتهم به، ولم يكن دخوله شيئاً عادياً في ذلك اليوم الأحمر، ففرقوا له الصفوف وهو يخترقها ناظراً إليهم في أبوية حانية، حتى وصل إلى البرج، وصعد إدريس عليه والطير ترتمي محلقة في السماء من فوقه، فقال لهم بصوت قوي وبلهجة حازمة:

- أنا إدريس بن يارد، وإن الله قد بعثني إليكم نبياً، الله الذي بعثني هو ربكم رب السماوات والأرض، ربكم الذي هجرتموه وانغمستم في هذا الذي أنتم فيه.. يا أبناء الظلام، أنتم متجهون إلى هلاككم جميعاً بأفعالكم الشنيعة التي ترتكبونها، اختلطت أنسابكم ووقعتم على أخواتكم وأمهاتكم والآن تقتلون أنفسكم، سيدوس الزمان على نسلكم وتلعنكم جميع الشعوب، أما إذا صلحتم فستكونون وجهاء في الدنيا والآخرة.

قال الشيطان بحزم:

- نفذ يا جينون، لا تدعه يكمل.

وفي غفلة من الجميع، نزل جند جينون إلى الساحة وهو يتقدمهم بثقة، نظر المجتمعون بذهول حقيقي ومدوا أعناقهم أمامهم، لم يكونوا ينظرون إلى جينون ولا إلى جند جينون، بل إلى ما أمام جينون، «سيميون»، الشاب المختطف أو المختفي، كان يبكي وكأن الشيطان يطارده والجروح في كل مكان في جسده، ثم أشار سيميون فجأة إلى إدريس وقال:

- يا أهل هينار، احذروا هذا الرجل الخبيث، لقد اختطفني هذا الرجل يا هينار، وظن أنه قتلني، لكنني هربت وتحررت.

ووقع على الأرض بحركة مدروسة وهو ينتحب ثم رفع رأسه يصرخ ويقول:

- كل ما بينكم من دماء حدث بعد أن دخل هذا الرجل وسطنا، كل من ماتوا هم من أولادنا، القصاص يا هينار. وانقلبت الطاولة، بل انقلبت هينار كلها.

«صيحة وسط رجال غاضبين تشعل ثورة».

تعالى الأيادي وارتفع الصوت وبدأت حركة من الناس تتوجه ناحية البرج، لكن إدريس أمسك بسور البرج الذي أمامه بغضب وهو يقول:
- لا تكونوا أغنامًا تسوقها الكلمات.. اذكروا يومًا كان منذ مئة سنة، كان ملككم الأول وأبوكم يرقد في تابوت محكم، ولم يكن أحد منكم ولا من أهل الأرض كلها قادرًا على إخراجه، فسافرت أمكم وملكتكم إلى عدن، وأحضرت رجلًا ماهرًا فتح التابوت وأنقذ حياة الملك من الموت.

ثم صاح إدريس:

- لقد كنت أنا ذلك الرجل الماهر.

سَرت همهمات من المشاعر المختلطة بين الناس وتصايح بعضهم أنه يذكر قدوم إدريس وفتحه التابوت بالفعل، فقد كان حدثًا مهمًا مشهودًا، ونظر إدريس إلى الفتاة زيلدا التي كانت تبتسم، لقد كان هذا هو السر الذي أخبرته به، في الحقيقة إدريس هو الذي أنقذ حياة كين، لكنه لم يكن يدري أن جينون هذا هو ابن كين الأخير الذي أنجبه بعد أن أنقذه من التابوت، قال إدريس:

- لو كنتُ أود أن أفسد أي إفساد في مملكتكم لكنت سأخبي ما أوتيت من العلم والطب ولم أكن لأفتح التابوت، ولتَرَكْتُ ملككم يموت ذلك اليوم.

بدأت عصبية الناس تهدأ قليلًا حتى صاح الشيطان جينون:

- هذا الرجل بارع وشهير في كل البلاد، لكنه اليوم اغترَّ بنفسه، ولمّا سمع بوجود علوم روحية ممتعة في هينار لم يصل إليها عقله، غار قلبه الأسود وأتانا هاهنا ودخل وسطنا وعادى تلك العلوم ووصفها بالشر، وقمة غروره قد ظهرت اليوم، لمّا اجتمعنا كلنا وفيما ما فينا من الألم من قتل أبنائنا، وهو يأتي ليحدثنا عن نبوته، وذلك الشاب المسكين مرْمِيّ في دمائه.

قام الشاب وصاح:

- القصاص من الكذاب يا هينار، قبل أن تجدوا أنفسكم كلكم قتلى، القصاص من الكذاب.

رفع جينون يده وأمر جنوده بالانقضاض على إدريس وقتله، وتصايح الناس تشجيعًا وغضبًا وبدؤوا يشتمون إدريس الذي نظر إلى جينون بعزم فوجده ينظر إليه بسخرية، تنهد إدريس وأغمض عينيه ورفع رأسه إلى السماء، كان جفناه يرتجفان كأنه يتلقى وحيا ثقيلا، ووصل الجنود إلى باب البرج بالأسفل ففتحوه عنوة وبدؤوا يصعدون.

ظهر على عيون إدريس المغمضة شيء من الدهشة فجأة، ثم زاد من إغلاق عينيه بخشوع، وانفتح الباب العلوي للبرج وبرز جند الشيطان أمام إدريس، وأصوات شتيمة الناس ترتفع بالأسفل وهم يلوحون بأسلحتهم، لكن الجنود الذين في الأعلى كانوا قد تجمدوا مكانهم وعيونهم أصبحت كدوائر واسعة من الخوف، فقد كان ما يرونه أمامهم شيء لم يشهده إنس ولا جن في تاريخ هذه الأرض كلها.

وجدوا أقدام إدريس ترتفع يسيرا عن الأرض كأنه يطفو، وهو يغمض عينيه ورأسه مرفوع إلى السماء، ثم زاد ارتفاعه أمام عيونهم المذهولة حتى بدأ الناس بالأسفل يلاحظون، رأوه يرتفع عن شرفة البرج ببطء، ولو أنني أفرغت جميع الحبر الذي معي لأصف هذا المشهد وحده لما استطعت، كانت أول آية من آيات الله يريها للبشر في نبي من أنبيائه،

كنت تقدر أن تسمع نبض قلوب الناس وحيرة أرواحهم، وإدريس يرتفع في السماء أمام عيونهم، ولم يكن جينون أقل دهشة، بل إنه تراجع وتعثّر وسقط على الأرض، فتح إدريس عينيه وقال لهم:

- توبوا إلى ربكم، واعلموا أن لله في هذه الأرض أنبياء من الإنس، وشياطين من الإنس.

قال كلمته الأخيرة وهو ينظر ناحية جينون الذي انقبض على نفسه برعب، فأكمل إدريس:

- واعلموا أنه سيخرج من نسل هذا الأعور رجل هو أصل الشرور كلها، فلا يغرنكم كما غركم أبوه الأعور.

ولم ينس أحد من أهل هينار ولا أتلانتيس هذا اليوم، يوم رُفع النبي إدريس إلى السماء.

**** تمت ****

يقول البوني:

- ورث تلاميذ إدريس الألواح الزمردية بكل ما فيها من الفلك والطب وعلم الحروف والفتوحات النورانية، وعادوا إلى مدينتهم الكبيرة عدن، وأصبحوا يُلقَّبون بأبناء الزمرد، وحافظت أجيالهم على تلك العلوم، وظل خاصتهم يتوارثونها جيلاً بعد جيل. كل الأديان والحضارات الكبرى مجّدت إدريس، فهو في التوراة أخنوخ، الرجل الذي أوتي كل العلوم، وله ثلاثة أسفار سرية عند اليهود، وعندنا في الإسلام هو نبي عظيم نزلت عليه ثلاثون صحيفة مقدسة، أما المصريون القدماء فاتخذوه إلها وسموه «تحت»، وقالوا إنه كتب العلوم كلها في ثلاثين كتاباً لا يطلع عليها إلا كبار الكهنة، وكانوا يضعونها في قدس الأقداس في المعابد وعدّوها كتب علوم خفية عالية تجعل صاحبها أعظم كاهن متمكن في دولة الفرعون.

اليونانيون كذلك اتخذوه إلها وسموه هرمس الهرامسة العظيم، وقالوا إنه كتب فلسفته الهرمسية في ثلاثين صحيفة منها الكيباليون وألواح الزمرد التي اشتهرت بأن فيها عبارات قصيرة تخاطب العقل اللاواعي ولا يفهمها إلا الصفوة الصافية من البشر، والغالب أنها تخاطب الروح فيفهمها كل شخص فهماً مختلفاً عن الآخر و...

قاطعه لويب قائلاً:

- هذه الحكاية التي ذكرتها عن إيزيس وابنها الأعور هي نفسها أسطورة إيزيس وزوجها أوزيريس وابنها الأعور حورس، والكل يعلم أنها حكاية خرافية.

نظر إليه البوني بعيون مرعبة وقال:

- أنت إذا كنت في مجلس العلم لا تحرك لسانك قبل أن آذن لك.

لم يدر لويب بماذا يرد على هذا الطيف الذي يحدثه، واستمر البوني ينظر إليه وعينه تقطر بالغضب ثم قال:

- لمّا فكّ الفقيه الصوفي ذو النون المصري رموز لغة المصريين القدماء التي يكتبون بها على جدران معابدهم.. عرفنا حكاية حورس وأمّه، ولو سألتك يا عديم الأدب من أين أتى المصريون بهذه الحكاية لسكتَ لسانك جهلاً.

ظلّ البوني ينظر بالشر إلى صمت لويب، ثم قال:

- كتب المصريون أن الإلهين «جيب» إله الأرض و«نوت» إله السماء بعد أن غضب عليهما الإله الأكبر رع وفرقهما، تزوجا وأنجبا ابنتهما الأكبر أوزيريس الذي اشتهر بالزراعة، وأنجبا بعد ذلك أخته الجميلة إيزيس ثم أنجبا أخاه «ست». تزوج أوزيريس أخته إيزيس، ثم كان شخص اسمه تحوت يعيش في عصرهم، استعانت به لأنه أوتي كل العلوم والحكمة. هذه في الحقيقة هي قصة آدم نفسها في التوراة التي تقول إن آدم «جيب» وحواء «نوت» تزوجا وأنجبا

ابنهما الأكبر كين «أوزيريس» الذي كان بارعًا في الزراعة، وتزوج أخته «إيزيس»، وأن هناك حفيدًا له أوتي كل العلوم والحكمة عاش في عصرهم اسمه إخنوخ «تحت».

قال له لويب:

- وأين «ست» الذي حارب أوزيريس وأين حورس الأعور، لا أراهما في حكاية التوراة؟

قال البوني:

- رغم أن الكتب المقدسة الرسمية لم تذكر شيئًا عن أي أخ حارب كين يومًا.. فإن مخطوطات اليهود غير الرسمية تحكي عن ابن آخر لآدم اسمه تيمنور، شنَّ حربًا بأسلحة ثقيلة على كين وبنيه، بل إنه هزمهم وسيطر على بلادهم، هذا هو «ست»، وقالت المخطوطات إن إدريس «تحت» كان يعيش في زمن تلك الحرب بين الأخوين.

قال لويب وقد بدأ يقتنع:

- وحورس؟

ابتسم البوني وقال:

- إذا كان أوزيريس هو نفسه كين فابنه الأعور حورس هو ابن كين الأعور جينون، وقد كُتبت قصة جينون بالكامل مفصلة في مخطوطة وجدت مكتوبة باللغة العربية قبل بعثة النبي محمد اسمها «صراع آدم وحواء والشيطان»، وجينون الأعور هذا أخطر من الشيطان، ورث عن أبيه كين أسرار علوم البناء والزراعة، ورغم الدماء التي نالت من هينار في عهده فإن العلم فيها قد ازدهر، ولمّا مات جينون ورث تلامذته تلك العلوم كلها.

قال ليوبولد باهتمام بالغ:

- وأين ذهبت علوم إدريس التي ورثها تلامذته وعلوم جينون التي ورثها تلامذته؟

سكت البوني ونظر إلى الأرض طويلاً وقال دون أن يرفع رأسه:

- خرج جنس وحشي من البشر لم تشهد الأرض يوماً غزوا مدينة هينار بعد أعوام من موت جينون وورثوا علومه ثم أبادوا البشر في مدينة شيلون وفي النهاية عقدوا العزم على أن يحصلوا على علوم إدريس من قلب مدينة عدن ولو دهسوا كل إنسان يمشي على أرضها، جنس من عمالقة أوغاد نُزعت الرحمة من قلوبهم وأرواحهم.

قال لويب:

- هل قلت عمالقة؟

قال البوني:

- المذبحة التي قام بها هؤلاء العمالقة الرعاع للحصول على تلك العلوم وُجِدَت مدونةٌ في كتابات أبناء الزمرد، وهي تحكي ملحمة أبطالها أشخاصٌ نسيهم الزمان، رغم أنهم كانوا السبب في وجودنا نحن البشر.

أخرج ليوبولد خلسة من جيبه المجموعة التالية من الأوراق ونظر إليها سريعاً، رسوماتها وحدها قبضت قلبه.

الورقة الأولى كانت ورقة الاختيار، وفيها رجل أسود وآخر أبيض يظهر وجهاهما عند شجرة كبيرة تحتها ثلاثة قبور.

الورقة الثانية فيها فارس مرعب المنظر يتهاى لاقتحام قلعة ما.

الثالثة تمثل رجلاً رامياً يرمي سهماً بيأس وهناك قذائف كثيرة تحيط به.

الورقة الأخيرة هي ورقة النسر وفيها نسر رهيب ينقضُّ على شيء ما بافتراس.